



## في صحبة السلطان: المغرب (١٩٠١ - ١٩٠٥)



المؤلف: غابرييل فير؛ ترجمة وتقديم/ عبد الرحيم حزل

الناشر: أفريقيا الشرق - الدار البيضاء.

تاريخ النشر: ٢٠٠٩

عدد الصفحات: ٢٤٧

صدر للمرة الأولى باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٥.

عرض

محمد عزيز الطويل

ماجستير في التاريخ المعاصر

عضو المكتب الإقليمي

للجامعة الوطنية لموظفي التعليم

طنجة - المملكة المغربية



واتخذت "خطأً تحريريًا معتدلاً" توخي إنصاف المغاربة من خلال إبراز الوقائع والأحداث كما هي، ودافعت بالحجج الدامغة عن مجموعة من الحقائق التي حاولت الكتابات الاستعمارية طمسها وتشويهها، وفي أحيان كثيرة قلبها خدمة للأهداف الاستعمارية (وثائق مغربية لميشو بيلير رئيس البعثة العلمية في المغرب نموذجًا).

من بين الكتب الفرنسية نقف على كتاب "في المغرب صحبة السلطان ١٩٠١-١٩٠٥" للكاتب الفرنسي "غابرييل فير" Gabriel Fier، وهو كتاب صادر عن دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، وترجمه عبد الرحيم حزل إلى لغة الضاد. ويدخل الكتاب ضمن جنس المذكرات، لهذا لم يفرد المؤلف حيزًا خاصًا بالمراجع، غير أنه أرفق الكتاب بصور نادرة تمثل تلك المرحلة، وعدد هذه الصور (٣٧) صورة أخذت بعدسته الخاصة.

يعتبر الكتاب فريدًا من نوعه، سواءً في محتواه أو في أهمية كاتبه "غابرييل فير". فهو عبارة عن مذكرات يحكي المؤلف من خلالها، عن كل ما شهده خلال إقامته في القصر الملكي في مراكش، حيث عاش قريبًا من السلطان مولاي عبد العزيز، فوقف على شخصية السلطان، وخبر علاقته بشخصيات الدولة في تلك الفترة، كما تطرق لبعض الأحداث الكبرى والأزمات التي كانت تمر بها الدولة عند بداية القرن العشرين. إن رجوعي لهذا الكتاب بالذات، جاء بعد حضوري لمعرض صور وأفلام حول المغرب من إنتاج المؤلف في متحف القصبة في طنجة يوم ٢٢ يونيو ٢٠١٢. وجاء المعرض بتنظيم من المعهد الفرنسي في المغرب وبشراكة مع مندوبية وزارة الثقافة في طنجة تحت شعار "في حميمية المغرب". التقيت خلال المعرض بحفيد المؤلف، الذي عبر عن حبه للمغرب، وإحساسه بانتماؤه له، كما عبر عن عشق جده للمغرب الذي احتضنه، إلى أن توفي في الدار البيضاء سنة ١٩٣٦. وللتذكير فقط، فقد تم تصميم موقع يعرف بمجموعات صور وأفلام غابرييل،<sup>(٣)</sup> وهي صور رائعة حول المغرب بداية القرن العشرين.

يتطرق الموضوع إلى كتاب فريد من نوعه معنون بـ "في المغرب صحبة السلطان" لصاحبه "غابرييل فير". وتأتي أهمية المؤلف باعتباره عاصر فترة تاريخية مهمة من تاريخ المغرب، فدخل القصر السلطاني، وخبر حياة القصر وأسرار علاقات السلطان المولى عبد العزيز برجال دولته، إضافة إلى النفوذ الأجنبي على السلطان. لقد تسمى المؤلف بمهندس السلطان بفعل إلمامه بالتقنيات الحديثة آنذاك.

مغرب مولاي عبد العزيز بعيون أجنبية

من خلال كتاب "في المغرب صحبة السلطان"

تعد الكتابات الأجنبية التي تناولت موضوع المغرب بحثًا ودراسة وتأييدًا، كتابات باللغة الأهمية، سواءً في تنوعها (فرنسية، إنجليزية، إسبانية...)، أو تنوع موضوعاتها؛ تقارير، كتب الرحلات، دراسات وأبحاث ميدانية جغرافية واثولوجية ولغوية وغيرها، إضافة إلى الدراسات التقليدية التي تهتم بالتاريخ والتشريع الإسلامي وفقه النوازل. وقد كان يتم رفع كل هذه الانتاجات إلى الاستعلامات الكولونيالية في الغالب الأعم.<sup>(١)</sup> في هذا الإطار، ومن خلال اهتمام فرنسا الشديد بمشروعها الاستعماري، أنجزت العديد من الدراسات والأبحاث المتعلقة ببلدان الشمال الإفريقي وخاصةً المغرب، ليأخذ الأمر طابعًا علميًا منذ أواخر القرن التاسع عشر. وتعرزت هذه الدراسات الفرنسية بعد فرض الحماية على المغرب سنة ١٩١٢، حيث مارس الفرنسيون هيمنة ثقافية احتكارية فيما يخص ماضي المغرب وحاضره في الكتب والحوليات والدوريات والنشرات وغيرها.<sup>(٢)</sup> ورغم أن العديد من الكتابات والأبحاث والدراسات حول المغرب وضعت لخدمة المخطط الاستعماري، بما قدمته من معطيات وإحصاءات وتحليلات وتوصيفات همت الأرض والإنسان، كان الغرض منها إبراز تخلف المغاربة وحاجتهم للأجانب، سواءً من خلال ما عُرف بالبعثات الاستكشافية والرحلات وبعدها ما عرف بالبعثات العلمية. فإن كتابات أخرى نأت بنفسها عن هذا المنحى



إن الإلمام بمضمون الكتاب يقتضي منا أولاً وقيل كل شيء، الإحاطة بالسياق التاريخي العام لمغرب العهد العزيزي، الذي تميز بطروف داخلية صعبة مست جميع ميادين الحياة. فبعد وفاة السلطان المولى الحسن الأول ١٨٩٤، تحكّم في الحكم من بعده حاجبه باحماد (أحمد بنموسى)، مستغلاً في ذلك صغر سن السلطان الجديد المولى عبد العزيز. لهذا اعتبر باحماد وصياً على الأمير الصغير من ١٨٩٤ إلى غاية وفاته سنة ١٩٠٠<sup>(٦)</sup>. وقد خلفت وفاة باحماد فراغاً سياسياً مهولاً في المغرب، فالمولى عبد العزيز صغير السن، كما أن ظروف نشأته لم تساعده على تحمل المسؤوليات الجسام التي تنتظره، والمتمثلة أساساً في بداية التغلغل العسكري الفرنسي انطلاقاً من الشرق، إضافة إلى ثورة الروكي بوحمارة التي زادت من ضعف المخزن وأحدثت أزمة مالية بفعل مصاريف المواجهات العسكرية.

وقد أحدث هذا صراعاً على النفوذ بين الوزراء ورجال القصر (خصوصاً بين المنهبي ومحمد غريبط).<sup>(٧)</sup> وأدت التمردات والصراع على النفوذ، إضافةً إلى الجفاف الذي ضرب المغرب سنة 1904، في تدهور الوضع الاقتصادي المغربي (المتدهور أصلاً)، فغلت الأسعار وانعدم الأمن. حاول المولى عبد العزيز التدخل للإصلاح، ففرض ضريبة الترتيب التي سوت بين الجميع في التحملات الجبائية، وكان الهدف من وراء هذا إعمار بيت المال. غير أن هذه الخطوة قوبلت بالرفض من لدن أصحاب الامتيازات (رجال الزوايا، القواد، الأشراف، المحميون والتجار، والسماصرة...)، فقامت عدة انتفاضات لإسقاط ضريبة الترتيب. ولم يجد المخزن من مخرج غير الاقتراض من فرنسا وإنجلترا، وهو ما سماه "روم لاندو" بالدول التي تصنع الظروف وتوجد بعدها الصيغ للخروج منها في إطار مشروعها الكولونيالي، أو ما أطلق عليها "بالدبلوماسية المالية".<sup>(٨)</sup> ينضاف للظروف الداخلية الصعبة والمتأزمة، بداية التغلغل الأوروبي العسكري انطلاقاً من الشرق، وجدة ثم الدار البيضاء 1907 (فرنسا)، كما كثفت فرنسا من دبلوماسيتها بعقد عدة اتفاقيات سرية مع الدول الامبريالية.

يبين "غابرييل فير" بداية الظروف التي تحكمت في شدة الرحال إلى المغرب، وقد عبر عن ذلك بعنوان "كيف جنّت إلى المغرب"، حيث يأتي على ذكر الشخصيات التي التقى بها خلال تنقله للتعريف بتقنيات التصوير الجديدة، (إمبراطور اليابان - إمبراطور أنام - ملك كامبودج - العديد من وزراء أمريكا اللاتينية). وبينما هو في فرنسا، سمع بأن ملك المغرب يريد مصوراً شخصياً له، إضافةً إلى شخص يتقن التعامل مع التقنيات والمخترعات الجديدة، فحزم أمتعته وتوجه رأساً إلى البلاط السلطاني. ومن خلال عمله في البلاط السلطاني، وقف على النية المبيتة لرجال الدولة آنذاك الذين عمدوا إلى تسليحة السلطان، مستغلين صغر سنه - كمؤامرة لإبعاده عن شؤون الحكم -، كما يبين كيف خلا الجو للوزير المنهبي بعد وفاة الحاجب باحماد، واتفاقه مع الإنجليزي مالك لين لتزيين المشاريع

ولد غابرييل فير سنة ١٨٧١ في مدينة ليون الفرنسية. درس الصيدلة أولاً، ثم تحول اهتمامه إلى التصوير السينمائي، فالتحق في استوديو الأخوين لومير (مخترعي السينما) لتعلم تقنيات هذا الفن. وانطلاقاً من سنة ١٩٠١ تلقى رسالة من الجالية الفرنسية المقيمة بطنجة تدعوه للقدوم إلى المغرب للعمل مصوراً لدى السلطان مولاي عبد العزيز، وتعليمه تقنيات التصوير الفوتوغرافي. وحثته الرسالة على الاسراع في القدوم لقطع الطريق على القائد ماك لين البريطاني - قائد الحرس السلطاني -، الذي كان يجتهد لاستكثار الرعايا الانجليز في البلاط المغربي. وبعد التحاق "غابرييل فير" في البلاط المغربي في مراكش، شرع مباشرة في إنشاء مختبره الفني في قلب البلاط السلطاني. وبيّن في كتابه الذي يغطي أربع سنوات قضاها داخل القصر صحبة السلطان مولاي عبد العزيز، أن التصوير كان من أكثر الهوايات اجتذاباً وإمتاعاً للسلطان. ولم يقتصر غابرييل على مهمة التصوير بل قام بإدخال الكثير من المخترعات الحديثة كالكهتاف والكهرباء والدراجات والسيارات، حتى سمي بـ "مهندس السلطان".

أحب "فير" المغرب فاستقر به وزاول عدة أعمال، فأنشأ في الدار البيضاء مجمع صناعي صغير (مطحنة ومصنع للثلج ومشار آلي)، ثم أخذ في استيراد السيارات فأسس لأجل ذلك الشركة المعروفة بأوطو هول "AUTO-HALL"، وأقام محطة إذاعية اعتبرت الأولى في المغرب، كما كان مراسلاً لعدة صحف ومجلات فرنسية إلى غاية وفاته في الدار البيضاء سنة ١٩٣٦. لم يكن "غابرييل فير" أي طموح للكتابة عن المغرب، والدليل على ذلك هو جمعه مادة هذا الكتاب من خلال ذاكرته، ومن خلال الرسائل التي كان يبعث بها لأقربائه وأصدقائه، "إن ما أقدم للقارئ في هذه الصفحات هو ملخص بكل ما رأيت وتعلمت في المغرب، أقوم بنشره الآن وقد أصبح كل ما يمسه المغرب يحتل واجهة الأحداث، وأما الشخصيات التي أقدم إليكم... فقد كانت لي بهم معرفة مباشرة ولم أقتصر في تقديمهم على تصويرهم في أدوارهم الخارجية والتشريفية، أو في مواقف الصور البطولية، وإنما أقدمهم حسبما كنت أراهم يوماً بيوم، على نحو ما كانوا يحيون حياتهم اليومية".<sup>(٩)</sup>

في هذا السياق، يسلط المؤلف الضوء على العديد من الشخصيات المؤثرة في عهد المولى عبد العزيز، على رأسها وزير الحربية المتسلط المهدي المنهبي، الذي كان يتمتع بسطوة مطلقة عليه، ذلك "الرجل الرهيب أبقى على السلطان الشاب في جهل تام بكل ما يتعلق بالسياسة، أو بإدارة إمبراطوريته. مما جعل مولاي عبد العزيز غير مهياً لممارسة أية سلطة مهما كانت". ويرينا الكاتب كذلك أن السلطان كان لا يعلم إلا الشيء القليل عما يجري في البلاد، والدليل على ذلك جهله بثورة الروكي بوحمارة، وعندما كان يسأل عن حقيقة ما يقوم به الروكي، كانت الإجابة أن كل ما في الأمر تمرد محدود سيقضى عليه بسرعة، لكن الأيام بيّنت لمولاي عبد العزيز أن "الروكي" ثائر خطير وقوي.



نلمس من خلال قراءتنا للكتاب قيام المؤلف بدراسة بيوغرافية لشخصية السلطان وكبار شخصيات القصر، المنهبي، القايد ماك لين، حيث يطلعنا على معلومات مهمة تتعلق بالشخصية، ومقدار النفوذ والتأثير الممارس على السلطان. وعند تطرق "غابرييل فير" للوزير المنهبي، يشير إلى بداياته في سلم المسؤولية، حيث كان متخصصاً في حمل الرسائل بين الأمير الصغير والصدر الأعظم باحماد - لم يكن سوى مجرد رقاص- وينحدر المنهبي من قبيلة المناهبة وهو ذو تعليم بسيط لا يتجاوز الإلمام بالكتابة والقراءة، عمل في البداية مخزناً، ثم ترقى في إحدى الحملات. وبعد وفاة باحماد زادت حظوة المنهبي لدى السلطان الصغير خصوصاً بعد أن أشار عليه بمصادرة أملاك باحماد وهو ما سد بعض ثقب الخزينة، فعين المنهبي وزيراً للحربية وهو في سن الثانية والثلاثين. بهذا أصبح مصير المغرب محصوراً بين يدي رجلين عديبي الخبرة هما السلطان مولاي عبد العزيز، وصفيه المنهبي،<sup>(١١)</sup> ومارس المنهبي نفس الخطأ حيث أبقى السلطان بعيداً عن أمور الحكم. وقد دفع نجاح المنهبي لدى السلطان إلى كثرة الدسائس عليه - فضول بن محمد غبريط- خصوصاً بعد تكليفه بسفارة إلى الملك إدوارد السابع بمناسبة تنويجه ملكاً على إنجلترا، غير أن الوزير المنهبي سيرجع حظوته لدى السلطان من جديد.

خلال هذه الأحداث الصغار ظهر حدث كبير زلزل أسس الدولة العززية المهرثة، ويتمثل هذا الحدث في ثورة الروكي بوحمارة. ومورس نوع من التعتيم والتغطية على السلطان، فرغم قوة التمرد والخسارات المتتالية لجيش السلطان كان يتم إخبار السلطان أنه مجرد تمرد صغير. وفي النهاية وتحت الاضطراب، أخبر السلطان بالحقيقة المرة وهي زحف الروكي المتواصل. وتم تكليف المنهبي على رأس جيش لمواجهة الروكي، غير أن إخفاقه في مهمته، دفع إلى عزله وتكليف شخص آخر هو محمد الكباص. كان هذا الفشل الذريع كفيلاً بابتعاد المنهبي عن البلاط السلطاني، ورغم محاولاته المتكررة لاسترجاع مكانته فإنه لم يستطع ذلك. غير أن علاقة المنهبي بالسلطان كان يطبعها مد وجزر لكثرة الوشائيات والدسائس التي كانت تسعى لتعكير صفو المودة بينهما. وبالفعل اتهم المنهبي بالاختلاس من الخزينة ليصدر قرار بالقبض عليه، فقام الوزير المنهبي بالهرب إلى طنجة ليلجأ إلى المفوضية الإنجليزية التي أنقذته وضمنت له الحماية.<sup>(١٢)</sup>

ينتقل فيير إلى شخصية القائد مالكلين الاسكتلندي الأصل، ولد في مدينة فريمن يوم ١٥ يونيو ١٨٤٥، أدخل في خدمة المجلس الاستشاري الملكي الخاص ثم دخل الخدمة العسكرية بعد ذلك. واستدعاه جون دراموند هاي - السفير البريطاني بالمغرب - ليدخله في خدمة مولاي الحسن مدرباً للجيش بصفة غير رسمية، وكانت سنة وفاته يوم ٤ فبراير ١٩٢٠. يبين فيير النفوذ الكبير لمالكلين، كما يبين الصراع الخفي بين البعثة الفرنسية والانجليزية. ينطلق بنا "غابرييل فير" في بلاط اللهو الذي كان مخصصاً للمولى عبد العزيز،

التي يقترحها على السلطان. ومن خلال هذا يصور لنا "غابرييل فير" جوانب مهمة عن شخصية السلطان، فهو ذو رغبات ونزوات فجائية، متقلب نافذ الصبر ويحب أن تقضى أوامره بسرعة كبيرة، كما أنه محب للحداثة والتطور الأوربي "لتحتفظ بلباسك الأوربي فإني أريد للمغاربة أن يعتادوا رؤيته"<sup>(١٣)</sup> إن مثل هذا التصريح يحيلنا على الفكر الحدائي للسلطان مولاي عبد العزيز ورفضه لانطوائية المجتمع المغربي وانغلاقه، تارة باسم التقاليد، وتارة أخرى بتوجيه من الفقهاء المتحكمين. ويتحدث المؤلف عن الصورة المغلوطة التي رسخت في ذهنه عن السلطان المغربي والتي صورتها طاغية وجبار، كصورة لعبت الدراسات الاستشراقية في ترسيخها في اللاشعور الأوربي عن كل ما هو شرقي، لتتلاشى هذه الصورة بمجرد لقائه مع مولاي عبد العزيز "ذا نظرة طفولية غاية في الرقة"<sup>(١٤)</sup>.

في العنوان الثاني "بدايات سلطان"، يبين المؤلف أن المولى عبد العزيز هو خامس أبناء مولاي الحسن الستة، أما والدته شركسية.<sup>(١٥)</sup> وبما أن الخلافة لم تكن لزوماً للأب الأكبر سنّاً من ذرية السلطان، يبقى للسلطان مهمة تعيين من يخلفه، وهذا ما تم حيث عين مولاي الحسن ابنه المولى عبد العزيز خلاً له. ويصور لنا "غابرييل فير" حيثيات انتقال العرش للسلطان مولاي عبد العزيز، فأثناء خروج السلطان مولاي الحسن سنة ١٨٩٤ لتأديب بعض القبائل المتمردة - قبيلة تادلة- فاجأه مرض شديد فارق الحياة بسببه. وكانت العادة خروج المخزن/ الحكومة جميعه مع السلطان أثناء حركته، فاستغل الصدر الأعظم باحماد هذا الحدث ليقوم بتشديد نفوذه على السلطان، حيث قام بترتيب أمور البيعة لمولاي عبد العزيز رغم حداثة سنه - لم يكن قد تجاوز ١٣ سنة- هكذا يرصد لنا المؤلف فصول المؤامرة بدقة كبيرة، من إخفاء لخبر موت السلطان وتطوير جنته أمام أنظار الجند إلى غاية مبايعة المولى عبد العزيز، والتي تحكم فيها باحماد بالوعد والوعيد. وقد دفع هذا التنصيب بالمولى امحمد للمطالبة بأحقية في الملك، فقام الصدر الأعظم باحماد باعتقاله وسجنه بسجن مكناس حتى سنة 1903، وبعد ظهور الروكي بوحمارة (الجيلالي الزرهوني) ومطالبتة بالعرش مدعيّاً أنه مولاي امحمد الابن الأكبر للسلطان الحسن الأول، فقام بتأليب القبائل ضد المولى عبد العزيز، ولم ينفع مع الروكي سوى تكذيب إدعاءاته وإخراج المولى امحمد من السجن وتطويفه ليراه الناس، وليعود من جديد لسجنه.<sup>(١٦)</sup>

ظل المغرب خاضعاً لباحماد من سنة ١٨٩٤ إلى غاية وفاته سنة ١٩٠٠، ممارساً وصايته على الأمير الصغير، وقابضاً المغرب بقبضة من حديد، فكيف لا وهو العارف بخبايا الحكم والخبير بالدسائس. فظل مولاي عبد العزيز مقصياً عن شؤون التسيير والسياسة، يعيش عزلة داخل قصره ولا يظهر سوى في الاحتفالات الدينية. وكان قدر مولاي عبد العزيز أن يعيش تحت وصاية إلى أخرى، فلم يلبث أن توفي باحماد حتى وقع تحت وصاية وزير الحربية المنهبي ورفيقه القائد ماك لين.



قدهما أرض المغرب كانت تحذوني رغبة واحدة، أن أؤدي المهمة التي لأجلها استقدمت إلى هذا البلد بزهامة واستقامة، وأنجز عملي المتواضع بسلام، من دون أن يكون لي تدخل في المشاريع والمخططات الكبرى التي من شأنها أن تبدل مصائر الشعوب، فتلك شؤون الأمراء والديبلوماسيين"<sup>(١٦)</sup> وأمام هذا التصريح المباشر بالحياد وعدم التدخل من جانب المؤلف، يبين هذا الأخير دوره في تقديم النصيحة للسلطان، فقد ذكره بواقع الحال المتمثل في تفوق فرنسا عسكرياً. لهذا نجده يلح إلحاحاً على السلطان اتباع أسلوب المهادنة وعدم المواجهة مع فرنسا، باعتبار أن أي حرب مغربية ضد فرنسا هي حرب خاسرة قبل أن تبدأ. ولم ينقذ الموقف المغربي غير زيارة غيوم الثاني لطنجة المساند للمغرب والمؤكد على استقلاله، والداعي لعقد مؤتمر دولي لتقرير مصيره.



وما أعد له من أدوات تسلية وأنواع الرياضات مما كلف خزينة الدولة غالباً، وأبقت السلطان حبيس نزواته الصببانية وبعيداً عن أمور الحكم. ويسترسل المؤلف في تعداد أنواع اللعب والملاهي التي كان ينغمس فيها السلطان، مما يطرح أكثر من علامات استفهام حول السلطان. هل كان السلطان يلهو بدافع اللهو أم بدافع حب الاكتشاف والذي يعبر عن رغبة ملحة لتحديث الدولة الشريفة؟ وقد قام "مهندس السلطان" بإدخال الكهرباء لقصر مراكش، كما أدخل خط الهاتف.

لم يكن ليكدر صفو السلطان سوى تسارع الأحداث، فبعد اغتيال الفرنسي "جول بوزي" على أيدي بعض الريفيين. سارعت فرنسا إلى طلب التعويض وحشدت لذلك فرقتين للضغط على السلطان. أما موقف المغرب فظل بدائياً يسعى دائماً إلى ربح الوقت دون حل المشكلة ليمت قبول مطالب فرنسا كاملة غير منقوصة<sup>(١٤)</sup> حاول المولى عبد العزيز الاهتمام بشؤون الجيش، فكان يتابع التدريب، كما سعى إلى شراء الأسلحة الجديدة. ولم يمنع اللهو المتواصل للسلطان خروجه لتأديب بعض القبائل - الزمامرة - والغريب في الأمر، أن السلطان كان يخرج في حركاته بمدينة كاملة تجمع حوالي ٤٥ ألف شخص، أما خيمة السلطان وحدها كان يسخر لحملها ٦٠ جملًا!! كما يضاف إلى هذا، العبث بميزانية الجند من خلال تضخيم النفقات والمشتريات رغم قلتها ليأخذ القادة وكبار رجال الدولة الفارق الكبير، "ومن ذلك على سبيل المثال أن الوزراء يلزمون له بأداء نفقة ٤٠٠٠٠ حصان وهل يملك منها حتى ٣٠٠٠؟ وقد يزعمون له شراء ٥٠٠٠ من الدواب فلا يشترون منها غير ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ ويستولون على الفرق..."<sup>(١٥)</sup>

يتطرق المؤلف إلى المجتمع المغربي فيصوّر لنا أدق التفاصيل داخل بيوتات فاس، بعدها يتطرق إلى حياة اليهود بالملاح فيحكم بوجود قانون قاسي يضطهد اليهود؛ فهم متكذبون داخل أحياء ضيقة ويمنع عليهم كذلك السكن خارجها كما توصلد عليهم الأبواب ليلاً بالسلاسل! ويمنع على اليهود ارتداء الثياب البيضاء أو الزاهية الألوان كما يمنع عليهم ركوب الجياد أو البغال، ويشتغل اليهود بحرف مختلفة غير أنهم يتخصصون في الصباغة. كما يتطرق المؤلف إلى مسألة العبيد وثمانه بالمغرب وأسواقه بفاس ومراكش، كما بين رفض فرنسا لبيع العبيد، وكيف كان خدم السلطان يتفننون في إخفاء عملية جلب العبيد وخصوصاً الشركاتيات.

في آخر عنوان للكتاب "فرنسا في المغرب: الاختراق السلمي"، ينطلق المؤلف من بعثة طايلاندي ١٩٠٥ الذي قدم مشروع الإصلاحات الفرنسية، فرد السلطان على مطالب الإصلاحات الفرنسية بدعوته إلى مؤتمر دولي يتولى التقرير في برنامج تلك الإصلاحات. وقبل بعثة طايلاندي قامت فرنسا بالتمهيد للاستفراد بالمغرب حيث عقدت اتفاقيات ديبلوماسية سنة ١٩٠٤ مع كل من بريطانيا وإسبانيا. وفي هذا الإطار ينفي المؤلف وبشدة أي دور استعلاماتي قدمه لدولته فرنسا معلناً حياده التام، "إنني يوم وطئت



## الهوامش:

- (١) بنسعيد سعيد، "المغرب في الدراسات الاستشراقية"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الندوات، مراكش أبريل ١٩٩٣، ص ٣٧.
- (٢) حجي محمد، "دراسات المستشرق ألفريد بيل المتعلقة بالمغرب"، ص ١٢٩.
- (٣) أنظر الموقع الإلكتروني التالي: (<http://www.gabrielveyre.com>)
- (٤) في صحبة السلطان: المغرب (١٩٠١ - ١٩٠٥)، ص ٩.
- (٥) للتوسع في موضوع باحماد أنظر: Charle Andre Julien, "Le Maroc Face Aux Imperialismes". Edition S.A 1978, P. 38.
- (٦) علال الخديجي، "التدخل الأجنبي والمقاومة في المغرب ١٨٩٤ - ١٩١٠"، إفريقيا الشرق، ١٩٩١، ص ٢٩.
- (٧) روم لاندو، "تاريخ المغرب في القرن العشرين"، ترجمة نيكولا زيادة، ص ٦٩ - ٧١.
- (٨) في صحبة السلطان، ص ٢١.
- (٩) نفسه، ص ١٩.
- (١٠) Walter harris, "morroco that was", Londres 1921, trad paul odinot: le maroc disparu, paris 1929, P. 42.
- (١١) فريديريك وايسجربر، "على عتبة المغرب الحديث"، ترجمة عبد الرحيم حزل، جذور للنشر، الرباط ٢٠٠٧، ص ٥١.
- (١٢) في صحبة السلطان، ص ٤٣.
- (١٣) Léonard karow, "neuf années au service du maroc". traduction et notes de monique miége et jean louis miége, edition la porte, rabat 1998.
- (١٤) في صحبة السلطان، ص ١٤٤.
- (١٥) نفسه، ص ١٦٩.
- (١٦) نفسه، ص ٢١٢.

يبقى كتاب "في المغرب صحبة السلطان" من المؤلفات الأجنبية المتميزة، التي رصدت لنا فترة مهمة من تاريخ المغرب (١٩٠١ - ١٩٠٥)، فترة تميزت بالضعف الشديد. وتبقى الأهمية الكبرى في الوقوف على خبايا حياة السلطان المولى عبد العزيز الذي حيكت ضده مؤامرة العزل عن أمور السياسة، عن طريق إغرائه بوسائل اللهو والترفيه الأوروبية مما كان له أثر كبير على شخصيته. فقد تم تصويره في صورة السلطان العاجز، الذي لا يهيمه هموم الشعب بقدر اهتمامه بألعابه التي كلفت الخزينة مبالغ طائلة كان المغرب في أمس الحاجة لها. لهذا وجدنا السلطان بعيداً عن شؤون الحكم، كما استغلت طبيته، فقام الوزراء وقادة الجيش باختلاس أموال طائلة من الخزينة، كما أغرقوا الرعية في ضرائب مرتفعة، وأدى خروج أخبار لهو السلطان إلى تأليب الشعب عليه، كما ازداد خلال نفس الفترة الضغط الأوربي المطالب بإصلاحات يراها ضرورية. وأدى كل هذا إلى التعجيل بخلع السلطان عبد العزيز ومبايعة المولى عبد الحفيظ سنة ١٩٠٨. وقد عزز هذا احتلال فرنسا لوجدة والدار البيضاء سنة ١٩٠٧ فظهرت الدعوات للجهاد، كما ظهرت عرائض موقعة من طرف علماء ووجهاء فاس، وتوجت هذه الدعوات ببيعة مراكش ١٩٠٨ والتي تضمنت عزل المولى عبد العزيز وتولية المولى عبد الحفيظ، لكن بشروط تتمثل أهمها في التراجع عن مقررات الجزيرة الخضراء، واسترجاع المدن المحتلة، ومحاربة الحمايا. ورغم جهود المولى عبد الحفيظ سقطت البلاد أمام الضغوط الشديدة لفرنسا وليوقع المولى عبد الحفيظ مع فرنسا معاهدة الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢.